

في فضاء الوعي؛ مقارنة لسانية عرفانية في معلقة عنتره بن شداد

A Linguistic-Cognitive Approach to Antarah ibn Shaddad's Mu'allaha within the Space of Consciousness

* د. محمد فارح

Dr. Mohammed Farah

مخبر الدراسات الاستشرافية الحماية اللغوية والاجتماعية

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

University of Larbi Ben M'hidi Oum El Bouaghi (Algeria)

farah.mohammed@univ-oeb.dz

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/11/08

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

تروم هذه الدراسة التوغل في فضاء الوعي في أحد أشهر القصائد لعنتره بن شداد، تتجاوز فيها تحليل البنية السطحية من اللغة، لنغوص في أعماق الذهن وكيفية بناء المعنى وتشكيل وعي الشاعر من خلال لغته الشعرية، نحاول من خلال ذلك الوقوف على الأفضية الذهنية في هذه المعلقة، وكيف عالج الشاعر الصراع الذي عاشه في قبيلته ومع ذاته ومحبوته عبر هذه الأفضية، لنفهم كيفية اشتغال العمليات الذهنية الشاوية وراء التراكيب اللغوية في هذه القصيدة. الكلمات المفتاح : فضاء؛ وعي؛ لسانيات؛ عرفانية؛ معلقة.

Abstract :

This study seeks to delve into the realm of consciousness in one of the most famous poems by Antarah ibn Shaddad. We'll move beyond analyzing the superficial structure of the language to dive into the depths of the mind, examining how meaning is constructed and how the poet's consciousness is shaped through his poetic language. Through this, we aim to understand the mental spaces within this Mu'allaha and how the poet navigated the conflict he experienced within his tribe, with himself, and with his beloved. Ultimately, we seek to comprehend the function of the underlying mental processes behind the linguistic structures in this poem.

Keywords: space; consciousness; linguistics; cognitive; Mu'allaha



مقدمة:

تعد اللسانيات العرفانية أحد الفروع المهمة في الدرس اللغوي المعاصر، كونها تحاول أن تغوص في ثنايا الدماغ البشري وتبحث في كيفية اشتغاله من وجهة اللغة، سواء من ناحية إنتاج الخطاب أو تلقيه، فهي تبحث في كل ما له ارتباط باللغة والإدراك والمعرفة، ولهذا حاولت العرفانية أن تدرس مجموعة من المباحث كالاستعارة التصويرية، والتجسيد، والفضاء الذهني وغير ذلك في ضوء البعد النفسي الذي حاول أن يقف على كيفية فهم اللغة وتأويلها داخل الدماغ البشري الذي يركز على التصورات العرفانية أو مجموعة الأفكار والمفاهيم في فهمه العميق للعالم الخارجي.

ويعد الفضاء الذهني أحد أهم المباحث التي عنت بها اللسانيات العرفانية، وهو أحد الوسائل التي يحاول المتكلم أن يبلور فيها مقاصده وغاياته، وقد كانت معلقة عنتره بن شداد أرضية خصبة لمباحثة الفضاء الذهني فيها، وذلك لتعدد الأفضية فيها كفضاء الحنين، والفخر، والفروسية، والحب...وهي أفضية تشكل في حقيقة الأمر فضاء أوسع هو فضاء الصراع، هذا الصراع الذي عاشه الشاعر مع نفسه، وقومه، وأعدائه، مما جعل الشاعر يوظف هذه الأفضية ليحملها مكوناته الثابتة وراء جدار اللغة، ويلجأ أحيانا إلى الدمج بين فضاءين ليؤلف لنا فضاء جديدا يحمل دلالات أعمق تحمل خلفها عمق معاناة الشاعر وألمه.

وقد تبلورت إشكالية هذه الدراسة في:

-كيف تتشكل فضاءات الوعي في معلقة عنتره من خلال لغته؟

-وما هي الأبعاد الدلالية لهذه الفضاءات؟

-وكيف أسهمت في بناء شخصية الشاعر وتجسيد صراعه النفسي والاجتماعي؟

1- مفهوم اللسانيات العرفانية (Cognitive Linguistics):

تعد اللسانيات العرفانية توجهًا معرفيًا جديدًا، يحاول دراسة اشتغال الذهن في علاقته باللغة والذكاء البشري، فهي كما يقدمها الأزهر زناد بأنها "تدرس اشتغال الذهن والذكاء دراسة أساسها تضافر الاختصاصات تساهم فيها الفلسفة وعلم النفس والذكاء الاصطناعي وعلوم الأعصاب (علوم الدماغ) واللسانيات والأنثروبولوجيا كما تدرس العلوم العرفانية الذكاء عامة والذكاء البشري وأرضيته البيولوجية التي تحمله، وتعني كذلك بمتوله وتبحث في تجلياته النفسية واللغوية والأنثروبولوجيا"¹، فهي بهذا التعريف تسعى إلى فهم كيفية عمل الذهن وقت توليد أو تلقي اللغة.

إن اللغة من منظور اللسانيات العرفانية لا تنفصل عن الخبرة الإنسانية التي تشكلها التجربة، والتي تؤثر في الطريقة التي ندرك بها الأشياء ونصوغ بها مفاهيمنا المختلفة، والتعبير عن الأشياء والمفاهيم، وهو بعد لغوي يتأثر بلا شك بكيفية إدراكها. فاللغة ليست مستقلة أو مغلقة على ذاتها ولا يمكن وصف نظامها الداخلي وصوغ قواعده وقوانينه بمعزل عن البنية التصويرية أو المعرفية، التي تؤسس لمبادئ عامة في الخبرة البشرية تؤثر مباشرة في بنية المبادئ اللغوية المختلفة.² فهي دراسة قائمة على أساس التعالق بين اللغة والذهن البشري والتجربة، ومن أهم ما يؤمن به أصحاب هذا التوجه أن هذه المبادئ (اللغة، الذهن، التجربة) متجذرة في الملكة العرفانية لدى الإنسان، ومعنى هذا أنه لا يوجد عضو

ذهني مخصوص باللغة، فاللغة مثلها مثل الأنشطة الأخرى وليدة نشاط عرفاني مركّز في الملكة العرفانية التي تمثل نشاط الدماغ عضوا ماديا.³

2- نظرية الفضاءات الذهنية:

تنتهي هذه النظرية إلى نظرية الأنساق اللسانية المفتوحة على المخاطب والمقام، ويمكن فهم العلاقة بين الظواهر اللغوية والعمليات الذهنية وفق ما قدمه فوكوني الذي يرى أن أكثر الأبنية تنطوي على إشكالات في الفهم والتأويل، وتكون الدلالة فيها غامضة وملتبسة؛ وذلك لأن التحليل الشكلي التركيبي غير قادر على تقديم تفسير دقيق وعميق لها، ويمكن الحل في إعادة قراءة الأبنية وتفسيرها من خلال فضاءات ذهنية منتظمة ومتناسقة ومترابطة في ضوء قرائن تركيبية ومقامية وثقافية واجتماعية تمكن القارئ من القبض على الدلالة والاهتداء إلى المقصود من الخطاب.⁴

إن الفضاء الذهني هو جزء لا يتجزأ من العملية الإدراكية عند المتكلم، فهو جملة من العناصر والمعلومات المنتظمة تتعلق بالعملية الإدراكية، وينضوي تحتها كل المفاهيم المتعلقة بالمعتقدات، والأفكار، والأحاسيس، والمشاعر، وكل ما له صلة بالأشياء الكونية يعد بنية عرفانية، وتبنى داخلها المجالات وتنسجم وترابط بأنواع من الترابطات.⁵

3- الأفضية وبناء الدلالة في معلقة عنتره:

تعد معلقة عنتره من القصائد الشعرية الغنية بالفضاءات الذهنية التي حاول الشاعر أن يضمها أفكاره، ومن أهم الفضاءات نجد فضاء الصراع، والحب، والواقع والخيال، والفروسية والفخر، ويعمد الشاعر في كثير من الأحيان إلى دمج فضاءين ليولد لنا تفضيا جديدا، وغايته من ذلك أن يلبس الفضاء دلالة جديدة لم يكن لها أن توجد دون هذا التفاضل.

أ- فضاء الذاكرة:

إن هذا الفضاء يعد فضاء رئيسا في المعلقة، إذ افتتح الشاعر به معلقته، وهذا الفضاء بنيت عليه باقي الفضاءات، كون الشاعر يقف على طلل محبوبته ويناديه، ليحول واقعه الذي يعيشه في آنه إلى لحظة زمنية فارقة ينتقل بها إلى فضاء الذاكرة، وهو فضاء لا يخلو من لحظات تذكّر المحبوبة، وأقوالها، وصورتها، ومواقفها، وحديثها، يقول عنتره:

هَلْ غَادَرَ الشَّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ	أَمْ هَلْ عَرَفَتْ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ
أَعْيَاكَ رَسْمَ النَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ	حَتَّى تَكَلَّمَ كَالْأَصَمِّ الْأَعْمَجِ
وَلَقَدْ حَبَسْتُ بِهَا طَوِيلًا نَاقِي	أَشْكُو إِلَى سَفْعِ رَوَاكِدِ جُذُمِ
يَا دَارَ عِبَلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي	وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عِبَلَةٍ وَاسْلَمِي ⁶

يقف عنتره بناقته على آثار محبوبته التي غادرت المكان وهو نقطة انطلاق الفضاء عند الشاعر، فضاء أساسي يبني فيه الشاعر حكايته التي ستطلق من واقعية المشهد، مشهد يخلو من محبوبته التي لطالما تغنى بها في أشعاره، لينفس من حرقة الحب الذي يوقد في قلبه، لينطلق به إلى عالم متخيل.

يمثل زمن الخطاب اللحظة الحاضرة التي يُعاد فيها بناء مشهد جديد. ينطلق الشاعر من هذا المشهد إلى أعماق الماضي، وتحديدًا إلى الزمن الذي عاشه مع محبوبته. أما مكان الخطاب فهو المكان الذي نظم فيه الشاعر معلقته، حيث يقف أمام دار عبلّة في الصحراء. مستحضرا أمام هذه الأطلال ذكرى محبوبته.

تعكس الحالة الذهنية للشاعر حالة من التشتت والتردد والوهم، وهو ما يظهر في استهلاله القصيدة بالاستفهام الإنكاري: "هل غادر الشعراء من متردم؟". يتبع ذلك بسؤال نفسه: "أم هل عرفت الدار بعد توهم؟". هذه التساؤلات تعكس حالته النفسية المتشعبة بعد رحيل أهل عبله، والذي لا يمثل مجرد رحيل، بل هو حرمان من رؤية محبوبته.

ب- فضاء الحنين:

وهو من الأفضية التي نجدها بكثرة في معلقة عنتره، خاصة وأنه عاش مأساة حقيقة بدءا بالعبودية ونكران القريب له وهو الأب، وعقدة اللون، انتهاء بالحرب الذي تم رفضه من قبل عمه، وهو ما خلق في نفسية الشاعر حالة اغتراب جعلته يترجم ذلك في فضاء الشوق والحنين، ومن أبرز المواضع في المعلقة:

يَا دَارَ عِبْلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعَمِي صَبَاحاً دَارَ عِبْلَةَ وَإِسْلَمِي⁷

إن الشاعر لا ينادي كيانا ميتا لا يسمع ولا يتكلم، إنه يخاطب ذكريات المكان، فجعل دار عبله كائنا حيا له حواس البشر، وطلب منه أن يتكلم، وما هذا إلا تجسدا لألم الشوق والحنين لمحبوبته، كون البعد والفرق قد تمكنا منه، فانهار في لحظة زمنية أمام قوة هذا الحنين صارخا بأن يتكلم، ويخبره عن أحوال عبله.

رسم الشاعر لوحة فنية مشرقة كسر من خلالها حاجز الصمت،⁸ إذ إن الدار لا تمثل في حياة عنتره إلا ما تمثله الذكريات وأثرها العميق في حياته، والحنين لعبلة قد أخذ منه مأخذا عظيما، حتى صار يرى أن جدران بيتها يمكن أن تحدثه بأخبارها وأحوالها، وهذا راجع إلى الحالة النفسية التي يعيشها عنتره جراء بعد عبله عنه، فولد هذا الأمر حالة من التشضي النفسي عنده.

ونجده في موضع آخر يقول:

حُيِّيتُ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرُ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْمِ⁹

إن الشاعر يفتح هذا البيت بتوجيه تحية لطلل لطلالما حمل ذكريات محبوبته، وهذا الفعل يعبر عن مدى شوقه وحنينه إلى كل ما يذكره لعبلة، فأصبح هذا الفضاء الوجودي فضاء يحمل ذكرى مكانية وزمانية فارقة لمن أحب، ولهذا يتحول المكان "الطلل" من مجرد مكان إلى ذكرى يحن لها عنتره، ويعبر عن ذلك من خلال لغته الشعرية التي يحملها دلالات المحبة لذكرى عبله.

ومن المهم الإشارة إلى أن شعرية المكان تتحول في هذا السياق إلى سياق عاطفي ونفسي لدى الشاعر، إذ لا يهمه المكان بقدر ما يهمه ما كان فيه من أحداث دارت فيه، من لقاء المحبوبة، والنظر إليها، ولهذا فالشاعر يضيء على الفضاء المكاني فضاء ذهنيا يحوله من مجرد مكان إلى ذكرى مكانية وزمانية معينة.

ج- فضاء الفخر والفروسية

حاول عنتره في معلقته أن يرسم لنا فضاءات مختلفة، ومن أهمها فضاء الحرب والقتال، وهو فضاء أبدع فيه الشاعر من خلال دقة وصفه، وقد تجاوز الوصف مشاهد القتال حتى تحول إلى فضاء ذهني حاول الشاعر أن يعبر به عن صراعه الأبدي مع ذاته، فلم يعد يحاول إثبات قدرته على القتال وهزيمة خصومه بقدر محاولته أن يثبت ذاته ويفرض على قومه واقعه، فعنتره يحاول من خلال القتال والقتل أن يثبت فروسيته، وإرجاع مكانته الاجتماعية التي سلبت منه، يقول عنتره:

يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرِّمَاحَ كَأَنَّهُمَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانٍ الْأَذْهَمِ¹⁰

يبرز الشاعر من خلال هذا البيت مكانته المؤقتة مكانة الفارس الذي يستنجد به القوم في أحلك اللحظات التي يكون فيها الفارس، فهم يدعون عنتره والرماح تنهال عليه وعلى فرسه، فهذا النداء ليس مجرد نداء عادي يألفه الفارس لأنه الرجل الذي يعول عليه في المعارك، وإنما هو لحظة تاريخية بالنسبة لعنتره، لحظة اعتراف منهم بفروسيته وقوته وشجاعته، وهو ما يولد داخل الشاعر نوعا من الصراع النفسي، فهو قبل المعركة وفي قبيلته مجرد خادم وعبد وضع، وفي المعركة ووقت الشدة يصبح الفارس والمنقذ والقائد، فيؤد هذا الأمر فضاء ذهني تجري فيه مأساة الصراع لدى الشاعر، ومع هذا فالشاعر يقتنص هذه اللحظة الزمانية والمكانية ليجعلها فضاء للتعويض، فيقلب الفضاء أداة للتعويض النفسي والمعنوي له، من خلال زهوه بما يسمعه منهم، وهم في أضعف حال ينادون عنتره.

يحمل هذا البيت نوعا من الاعتراف بفروسية الشاعر وإن كان اعترافا مؤقتا إلا أنه له دلالات لدى الشاعر، يعوض به عما يلاقيه من قومه في أيامه الأخرى من نقص ومسبة وتعبير بسب لونه وأصله ونسبه، ويصور لنا مشهدا عجيبا وهو تشبيه الرماح بجبال البئر، وهو يبنى بذلك فضاء المعركة من خلال هذا التشبيه البلاغي العجيب، فيظهر للسامع شدة المعركة وقوتها؛ ليثبت قدرته وفروسيته وشجاعته، وليس هذا إلا ليحظى بهوية غير هويته المعروفة، هوية الشاعر الفارس المقاتل، وليست هوية العبد الوضع الذليل.

ويقول في موضع آخر:

يُخْرِكُ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَتَيْيَ أَغْشَى الْوَعَى وَأَعِيفَ عِنْدَ الْمَغْمِ¹¹

يوجه الشاعر خطابه لمحبوته بأن تسأل عنه، وسيخبرها من كان شاهدا يوم الواقعة، يوم المعركة بأنه رجل لا يخشى نزال الخصوم، ولا يهاب غبار المعارك، بل يقدم غير محجم، ومقبل غير مدبر، ومع هذا لا يكتفي عنتره بوصف شجاعته وفروسيته حتى يفخر بذاته وأخلاقه وكرامته، فهو يعف عند المغم، " " يؤكد أن الفضيلة هي أساس مشروع البطولة القيمي، فهو يقاتل لأجل إقرار قيم الفضيلة وليس من أجل المغم¹² هذا لأنه يرى أن أرض المعركة لا تكون مكانا للغنمة بالنسبة له بل هي مكان لإثبات مكانته بصفته فارسا ومقاتلا، فلا يهيمه من هذا الحروب سوى أن يثبت لقبيلته التي نبذته أنه رغم أنوفهم فارس لا تملؤ الغنائم الفانية عينه.

إن هذا الصراع الوجودي الذي يعيشه عنتره سببه نبذ قومه له، فهو عبد لا يصلح إلا لخدمتهم، ليقنص الشاعر في هذه الساحة الفرصة ليبرر عما يجول بداخله، ويثبت لمحبوته أنه فارس لا يهيمه من القتال إلا النصر، والدفاع عن أهله وقومه. فهو بهذا يحاول أن يعوض ذلك النقص الذي طالاه بالعبودية، ويحاول أن يثبت جدارته في المكانة التي يربو إليها، يفخر في هذا البيت بما ينسبه لنفسه من الفروسية والشجاعة، فلا يخشى المعارك ويدخل إليها بقلب لا يهاب الموت، ويفتخر بأخلاقه العالية التي تدفعه إلى أن يعف عند المغم، كل هذا هو محاولة من الشاعر أن يثبت نفسه وكيونته بأنه فارس شجاع يستحق العتق وأن يكون أحد سادات قبيلته وليس عبدا منبوذا فيها.

د-فضاء الحب والقتال:

يحاول الشاعر في هذا الفضاء أن يدمج بين فضاء الحب والقتال، وأن فضاء القتال جزء لا يتجزأ من فضاء الحب، وأن الحب والقتال كلاهما يحتاج إلى رجل شجاع فارس، فإن كان الفارس يزود عن قومه وقبيلته، فإن الحب يزود عن حبه ومحبوبته، فيقول في ذلك:

لَنْ تُغْدِي دُونِي الْقَنَاقَ فَإِنِّي طَلَبُ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَعْلِمِ¹³

يوجه عنتره خطابه لمحبوته قائلاً لها إن تغدي دوني القنقاع أي إن تستتري عنه، فإني أستطيع أن أقتنص كل فارس متخفي بدرعه، وأنه إن كان كذلك فلا يحق لها أن تمتنع عنه وهو الشجاع الفارس القادر من الوصول إليها حتى وإن استترت عنه، وعنتره في هذا الموضع يبني لنا فضاء عجبياً، حيث دمج فضاء الحب مع فضاء القتال، وهو بهذا يولد معنى جديداً في أن الحب والقتال يحتاجان إلى هذا الفارس والبطل.

يعبر الشاعر من خلال هذا الفضاء عن أن حبه لعبلة لم يكن بشهوة العاشق، ولا للذة تسيء إلى عفتها وهي من أشرف بيوت العرب، بل أحبا بقلب الفارس الشجاع، الذي يرى فيها نخوته وشرفه.¹⁴ ليعبر عن ذلك في موضع آخر يقول فيه:

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي¹⁵

إن الخطاب في هذا البيت خطاب تساؤل واستفهام، وهو دعوة الشاعر لمحبوته أن تسأل عن بطولات محبوبها، وعن فروسيته وشجاعته وبأسه في القتال، هذه الصفات التي يحولها الشاعر من مجرد أوصاف إلى فضاء ذهني يملؤه مبدأ من مبادئ الشاعر وهو الاستحقاق؛ أي أن عنتره لا يمكن أن ينال حب عبلة إلا من خلال شجاعته وبأسه، ولا يتسول منها المحبة شفقة منها، خاصة والشاعر عاش مأساة العبودية، وهو ما ولد لديه الأنفة وعزة النفس.

في خطاب شعري مفعم بالحب والفخر، يدعو عنتره حبيبته عبلة إلى أن تسأل عنه، لكنه يجدد لها من تسأل ومن تتجنب؛ فلا يريد أن تسأل الجبان، أو الحسود، أو الحقود. وبأسلوب استعاري بليغ، يوجهها إلى أن تسأل الخيل، في إشارة إلى الفارس الذي يمتطيها. هذا الفارس، بما يحمله من شجاعة وبطولة هو الأجدر بأن يصف لها مآثره التي تجعله يستحق حبها.

إن اندماج فضاء الحب وفضاء القتال والحرب ولدا في المعلقة فضاء آخر جعل القارئ لا يفهم الحب إلا من خلال فهمه الحرب وفهم الحرب لا يكون إلا من خلال فهمه للحب، فهذا الامتزاج في نظر عنتره أن كلاهما يحتاج إلى رجل فارس شجاع يزود عنها بروحه وقوته ولا يدخر قوة في سبيلها، فهما أساس حياته، فإن كانت القبيلة مسكنه المادي، فإن محبوبته مسكنه الروحي، وإن كانت القبيلة تتأهي في ذاته، فإن محبوبته تتأهي في روحه، هكذا نظر عنتره للحب من خلال نظرته للحرب والقتال، فكانت انتصاراته كلها من أجل محبوبته، وأداة للوصول إلى قلبها.

و-فضاء الواقع والخيال:

استعمل الشاعر هذا الفضاء لينقل من واقعه المرير إلى خياله يستحضر فيه ما يريد، حاول أن يهرب من واقع يحاصره في كل لحظة فلم يجد إلا الخيال متنفساً لما يلقاه، يقول عنتره :

وَكَاكُمَا التَّمَثُّتَ بِجِدِّ جَدَايَةٍ رَشِيٍّ مِنَ الْغَزْلَانِ حُرٍّ أَرْزَمِ¹⁶

عمد عنتره إلى وصف عبلة من خلال أسلوبية التشبيه الذي انتقل به من فضاء الواقع إلى فضاء الخيال، فهو يصف لنا التفاتها بصفات الرشا الذي هو ولد الضبية، الحر وهو الخاص من كل مشوبة وأجودها، والأرثم الذي شفته العليا وأثقه في بياض، وما نلاحظه هنا هو التفاضل بين فضاءين، الأول فضاء الواقع في التفاتها، والثاني في صورتها التي تخيلها الشاعر في حلتها، وهو بهذا يدمج فضاء الواقع الذي تشاهده كل عين دون زيادة أو نقصان، وبين فضاء الخيال الذي أضفاه الشاعر من خلال وصفه وهو ما لا يراه سواه.

إن فضاء الخيال ليس مشاعا بين عامة من عرف عبلة ورآها، بل هو فضاء محتكر للشاعر المحب، فهو يصنعه كيف شاء، ولا يمكن أن نفهم هذا الفضاء إلا من خلال فهم فضاء الحب الذي ينطلق منه الشاعر في وصف محبوبته، ولهذا نجده يقول من شدة ما يلاقيه:

هَلْ تُبْلَغِي دَارَهَا شَدِيدَةً لُعِنْتُ بِمُخْرُومِ الشَّرَابِ مُصْرَمٌ¹⁷

يمثل هذا البيت أحد صور التفاضل بين الواقع والخيال، إذا يتساءل الشاعر في حيرة من أمره هل يمكن أن تبلغه ناقته دار عبلة، وهو ينطلق من واقعه الذي يرى أن ناقته تتصف "بالقوة والنشاط، وتحمل مشقة السفر"¹⁸ ولكن سرعان ما يندمج في فضاء الخيال، إذ يعكس هذا التساؤل صورة عجزه في عدم تحقيق حلمه الذي يراوده بوصال عبلة. إن حقيقة التفاضل هنا مرده عجز الشاعر في تحقيق مراده، وهو ما دفعه إلى بناء فضاء تخيلي، يعبر به عما يختلجه من مشاعر وأفكار ورؤى، وهو ما يعكس لنا قدرة الشاعر في التعبير عن وعيه شكل له عقدة الصراع، وبرز هذا في لغته الشعرية.

4-فضاء الصراع ودوره في تشكل وعي الشاعر:

يعد هذا الفضاء من أهم الأفضية التي نجدها في معلقة عنتره، وهذا راجع إلى ما عاشه الشاعر من مأساة العبودية وتنكر والده شداد له، وعدم اعترافه بأبوته له، وما لاقاه جراء هذا من قومه واستحقاقهم له، فعنتره كان يرى أنه فارس له الحق بأن يكون من سادات عبس، وفارسها الأول وشاعرها الفحل، كل هذا الاستحقاق لا يكون حسب رأيه بالنسب والحسب فقط، بل بالفحولة والفروسية والشجاعة والأخلاق، ولكن واقع الشاعر غير ما يتناه، وهو ما أدخله في دائرة الصراع الذاتي، ومن أهم صور الصراع نجد:

أ-الصراع وتأكيده الذات:

إن عنتره الفارس يرى أن الحصول على مكانة اجتماعية داخل قبيلته لا يكون إلا من خلال إثبات ذاته وشجاعته من خلال دخوله للمعارك والانتصار فيها، ولا يكون بمجرد الكلام في المجالس والتفاخر بالحسب والنسب، فأصبحت أرض المعركة مكانا لإثبات الذات وتأكيدها بما يطمح من المكانة الاجتماعية، وعنتره في كل هذا لا يريد من قومه أن يعترفوا له إحسانا منهم عليه، وإنما يدفعهم لذلك دفعا من خلال بطولاته التي لطالما افتخر بهذا في معلقته، فيقول في ذلك:

أَنْبِيَّ عَلَيَّ بِمَا عَلَّمْتِ فَأَنْبِي سَمَحَ مَخَالِطِي إِذَا لَمْ أَظْلَمْ
وَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِاسِلٌ مَرُّ مَذَاقَتِهِ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ¹⁹

يحاول عنتره في هذين البيتين أن يصنع لنا فضاء تندمج فيه أفضية مختلفة، فضاء الأخلاق العالية، والتي تمثل جزءا من شخصية الشاعر، والممثل في طبيعته المسالمة، وحسن المعاشرة، وطيب النفس، وفضاء القوة والرد القاسي لمن

تجراً وظلمه، لقد قرن الشاعر "السباحة بعد تعرضها للظلم، فالسباحة مع وقوع الظلم ضعف"²⁰، وهذا المزج بين الفضاءين يظهر أن وعيه بمسألة المكانة لا تأتي من غير الشدة والقوة والرد على الظالم والمعتدي، إنه يؤمن بأن الوصول إلى الحرية لا يكون إلا بساعده وقوته وسيفه.

ب-الصراع والإبداع الشعري:

كثيراً من حول الشاعر ما يعتمر قلبه من آلام إلى طاقة شعرية ارتقت به إلى سماء الشعراء، فهو يجعل من صراعه وقوداً للإبداع الشعري لديه، وهذا ما يجعل لغته الشعرية فريدة، ومن بين ما نجده في فضاء الصراع قوله:

في حومة الحرب التي لا تشكي
إذ يتقون في الأسيئة لم أخم
ولقد همت بفارة في ليلة
لما رأيث القوم أقبل جمعهم
غمراتها الأبطال غير تغمم
عنها ولكي تضائق مقدمي
سوداء حالكه كلون الأدلم
يتذاكرون كثر غير مدمم²¹

إن عنتره يصف حومة الحرب التي لا يخشاها الأبطال، وإنما يدخلون إليها وهم يسعون فيها، وقومه يتقون به الرماح التي لم تستطع إرجاعه إلى الوراء، بل كل ذلك يدفعه إلى الأمام حتى تضائق المكان من شدة الزحام، وهو صراع في أرض معركة، والذي يعد حدثاً رئيسياً يحرك الأحداث برمتها.

ثم ينتقل من فضاء الصراع وهو صراع وجودي مع العدو إلى فضاء الصراع الداخلي، صراع الشجاعة والإقدام مع الخوف من الحرب، وهو خوف طبيعي ينتاب كل إنسان، إلا أن عنتره سينتصر على هذا الصراع، فلما رأى الخصوم تهجم يحرض بعضهم بعضاً قرر هو أن يظهر بسالته وقوته وشجاعته ويهاجم من غير تذمر. ثم يظهر عنتره الإنسان في لحظات الحرب التي أخذت منه كل تفكيره، فيقول:

فلزور من وقع القنا يلبس إيه
لو كان يدري ما المحاوره اشتكى
وشكا إلي بعبرة وتحمم
ولكان لو علم الكلام مكلمي²²

وهو فضاء الصراع الداخلي والنفسي لدى الشاعر، إذ يتحول الصراع في لحظة زمنية من صراع مع العدو إلى صراع نفسي يمتزج بالألم اتجاه حصانه الذي اشفق عليه متعاطفاً معه من شدة ما أصابه من رماح الأعداء، وقد شكا إليه بعبرة وحمم إليه بصوته، فندمج الحصان في الصراع النفسي عند الشاعر. إن هذا الفضاء المتخيل من الشاعر اتجاه حصانه يجسد كذلك الخيال في وعي الشاعر الذي يغذي صراعه الداخلي، إذ أضفى على الحيوان صفة إنسانية، فهو يصور شكواه، وألمه وأنيته، وهذا ما يجسد الصراع النفسي العميق مع حصانه.

وفي البيت الثاني يتبنى الشاعر أن حصانه لو أمكنه التكلم ليعبر عما حل به، وهذا يجسد لنا فضاء من الإنسانية والرافة لدى الشاعر، وهو جانب مهم في شخصية عنتره الفارس الشجاع، وهذا المزج بين الأفضية حول القصيدة إلى لوحة فنية شعرية لا مثيل لها.

ج-الصراع وتشكل الهوية:

إن فضاء الصراع عند عنتره هو ما أسهم في تحديد هويته، بل حددها من خلال تجاربه التي خاضها في مواجهة هذا الصراع الاجتماعي والقبلي، فلم ينل عنتره حريته ولا مكانته بوصفه شاعر عبس وفارسها إلا بعد صراع طويل، وهو ما أثمر في النهاية بوصول عنتره إلى ما يرنو إليه، فقد وجدنا في المعلقة فضاءات مختلفة للشاعر، فضاء الحب والعشق، والبطل والفارس، والرحيم والقاسي، هذه الأفضية التي أسهمت في بلورة شخصية استثنائية في الشعر العربي القديم، ومن ذلك قوله:

تُبْتُ عَمْرًا عَيْرٌ شَاكِرٌ نِعْمَتِي وَالْكَفْرَ مَخْبِئَةً لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ²³

على الرغم من التضحيات الجليلة التي قدمها عنتره في سبيل قبيلته، والتي لولاها لما بلغ صيتها الآفاق، ظل هناك من ينكر فضله في مواجهة الأعداء وحماية الديار. هذا التجاهل كان يؤلم نفسه، لأنه لم يولد عبداً باختياره، ولكنه اختار أن يكون فارساً يدافع عن حريته، ويسعى لنيلها بقوته وبأسه الذي لا يضاهى.

إن عنتره رغم معاناته النفسية اتجاه هذا الصراع مع قبيلته إلا أنه يجد في فضاء الحرب نوعاً من التعويض، تعويض عن كل ما يلاقيه بسبب لونه وحسبه ونسبه، بل إن قومه الذين يعيرونه في السلم بكافة صفات القبح يستنجدون به في أرض المعركة، وهو ما يجد فيه عنتره عزاء لمصابه وصراعه الدائم، يقول في ذلك:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحَ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي بَلَابِ الْأَذْهِمِ²⁴

إن الصراع الذي خاضه عنتره مع قومه لم يكن إلا من أجل اعترافهم به فارساً وقائداً، ورغم ما لاقاه منهم في القبيلة من أساليب الإهانة، إلا أنه آمن بنفسه وبمبادئه، آمن أن الحرية لا تأخذ إلا بالقوة والشجاعة والفروسية. فهل استطاع عنتره أن يبتدي إلى ما يرنو إليه؟ وهل استطاع بعد كل هذا الصراع مع قومه أن يكون حراً؟ هذا ما أخبرنا عنه في بيته الشعري الذي يمثل فضاء الهوية، هوية جديدة تمثل انتصاره على الرق والعبودية، يقول عنتره:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَذْهَبَ شَقْمَهَا قِيلُ الْقَوَارِسِ وَيَكْ عَنْتَرَ أَقْدِمِ²⁵

استطاع عنتره الفارس أن يبلغ مراده، أن يأخذ حريته بيمينه وسيفه، ها هو عنتره الآن يغير هويته من عبد منبوذ، إلى فارس حر، يقر شداد له بالأبوة، ويعتقه ويلحقه به، فقد كانت "مواجهة عنتره مع والده وسيد شداد في هذه اللحظة الفارقة مواجهة من موقع القوة، وإدراك قيمة الذات، وكانت مواجهته وهو يراجع سيده في حقه بالاعتراف ببنوته، ويفاوضه في ضرورة مراجعة موقفه من شرعيته ونسبه وبنوته له؛ بوصفه واحداً من أهم أبنائه، وأحد أشهر أبناء قبيلة "عبس" وأشهر المدافعين عنها"²⁶ هكذا استطاع عنتره أن يسترجع حقاً سلبه قومه منه، وفرض نفسه عليهم بجد سيفه وقوته وجلده وصبره.

5-خاتمة:

ختاماً توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-تنوع الفضاء الذهني في معلقة عنتره بن شداد بين فضاء الواقع والخيال، والحب والقتال، والفخر والفروسية وهي أفضية عبر بها الشاعر عما يختلجه من مشاعر وأفكار، واستعملها لبيان الصراع الذي يعيشه من تهميش وإقصاء، محاولاً أن يظهر مدى صلابته في كل ما يواجهه من إهانات وإقصاء قومه له بسبب لونه وجنسه ونسبه.

لقد مزج عنتره بين مجموعة من الأفضية المتنافرة كفضاء الحب والقتال، محاولاً أن يظهر معدنه النفيس، فالحب عنده يرادف القتال وخوض الحروب، فالحب يزود عن محبوبته كما يزود الفارس عن أهله وقبيلته. يعد فضاء الحرب والفروسية عند الشاعر فضاء آخر للفخر بأخلاقه، فهو لا يرى الحرب مكسباً مادياً بقدر ما يراه وسيلة لتحقيق ذاته وكيونته.

إن التفاضل أو دمج الفضاءات الذهنية في القصيدة أظهر أن الشاعر يؤمن بأن حريته لا يمكن أن تمنح له إلا بقوة وشجاعته، وهو ما نراه في هذا التفاضل بين الحرب والفروسية، وأن الضفر بقلب محبوبته لا يمكن أن يناله إلا من خلال إظهار فروسيته وشجاعته، فالحرب وسيلة للوصول إلى قلبها.

هوامش:

- ¹ الأزهري زناد، 2010، نظريات لسانية عرفانية، ط1، بيروت-دار العربية للعلوم ناشرون، ص15.
- ² لطيفة إبراهيم النجار، (2004)، آليات التصنيف اللغوي بين علم اللغة المعرفي والنحو العربي، مجلة الملك سعود، كلية الآداب، السعودية، م17، ع1، ص05.
- ³ عطية سلمان أحمد، 2019، اللسانيات العصبية اللغة في الدماغ (رمزية، عصبية، عرفانية)، مصر-الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ص328.
- ⁴ لطفي ذوبي، (2004)، قدرة الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية، مجلة العلامة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، مج1، ع3، ص14.
- ⁵ الأزهري زناد، 2011، النص والخطاب: مباحث لسانية عرفانية، ط1، تونس-دار محمد علي، ص206.
- ⁶ عنتره بن شداد، دت، الديوان، تصحيح: أمين سعيد، مصر-المطبعة الغربية، ص122.
- ⁷ المصدر نفسه، ص122.
- ⁸ محمد علي إبيان، (2017)، قلق التشكيل في مقدمة القصيدة الجاهلية معلقة عنتره أمودجا، مجلة إشكالات، جامعة تمنغست، الجزائر، ع12، ص30.
- ⁹ عنتره بن شداد، الديوان، ص122.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص128.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص128.
- ¹² محمد موسى العبسي، (2020)، الشجاعة من أجل الوجود في معلقة عنتره بن شداد العبسي: مقارنة تأويلية سيميائية، مجلة التواصل الأدبي، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، مج10، ع01، ص235.
- ¹³ عنتره بن شداد، الديوان، ص125.
- ¹⁴ اسحق رحمان، حسين كياني، اغوان طاهري، (2017)، دراسة نفسية في شعر عنتره بن شداد على أساس معنى (نظرية أدلر النفسية)، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، الجزائر، مج09، ع2، ص81.
- ¹⁵ عنتره بن شداد، الديوان، ص126.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص127.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص124.

- ¹⁸ راضية لرقم، (2025)، سيميائية التشكل الهوي في معلقة عنتر بن شداد، مجلة الخليل في علوم اللسان، جامعة سكيكدة، الجزائر، مج4، ع2، ص58.
- ¹⁹ عنتر بن شداد، الديوان، ص125.
- ²⁰ محمد موسى العبيسي، الشجاعة من أجل الوجود في معلقة عنتر بن شداد العبيسي: مقارنة تأويلية سيميائية، ص233.
- ²¹ عنتر بن شداد، الديوان، ص128.
- ²² المصدر نفسه، ص128.
- ²³ المصدر نفسه، ص128.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص128.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص128.
- ²⁶ ناصر بن حمود بن حميد الحسني، 2012، العبودية وأثرها في شعر عنتر، ط1، عمان-دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص113.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. الأزهر زناد، 2010، نظريات لسانية عرفنية، ط1، بيروت-دار العربية للعلوم ناشرون.
2. الأزهر زناد، 2011، النص والخطاب: مباحث لسانية عرفنية، ط1، تونس-دار محمد علي.
3. عطية سلمان أحمد، 2019، اللسانيات العصبية اللغة في الدماغ (رمزية، عصبية، عرفانية)، مصر-الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.
4. عنتر بن شداد، دت، الديوان، تصحيح: أمين سعيد، مصر-المطبعة الغربية.
5. ناصر بن حمود بن حميد الحسني، 2012، العبودية وأثرها في شعر عنتر، ط1، عمان-دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

المجلات:

1. اسحق رحمان، حسين كياني، اغوان طاهري، (2017)، دراسة نفسية في شعر عنتر بن شداد على أساس معنى (نظرية أدلر النفسية)، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، الجزائر، مج09، ع2، من ص68 إلى ص96.
2. راضية لرقم، (2025)، سيميائية التشكل الهوي في معلقة عنتر بن شداد، مجلة الخليل في علوم اللسان، جامعة سكيكدة، الجزائر، مج4، ع2، من ص49 إلى ص73.
3. لطفي ذويبي، (2004)، قدرة الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية، مجلة العلامة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، مج1، ع3، من ص11 إلى ص27.
4. لطيفة إبراهيم النجار، (2004)، آليات التصنيف اللغوي بين علم اللغة المعرفي والنحو العربي، مجلة الملك سعود، كلية الآداب، السعودية، م17، ع1، من ص01 إلى ص26.
5. محمد علي ابنيان، (2017)، قلق التشكيل في مقدمة القصيدة الجاهلية معلقة عنتر أمودجا، مجلة إشكالات، جامعة تمنغست، الجزائر، ع12، من ص26 إلى ص38.
6. محمد موسى العبيسي، (2020)، الشجاعة من أجل الوجود في معلقة عنتر بن شداد العبيسي: مقارنة تأويلية سيميائية، مجلة التواصل الأدبي، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، مج10، ع01، من ص229 إلى ص255.